تعاليم الإسلام والاقتصاد الفضي : بناء مجتمع متماسك يعزز التعايش والمواطنة (حالة مصر)

حسين عبدالمطلب الأسرج

كاتب وباحث مصري

عضو هيئة تحرير مجلة الاقتصاد الإسلامي العالمية

في عالم يشهد تحولات ديموغرافية متسارعة، حيث يتزايد عدد كبار السن بمعدلات غير مسبوقة، يبرز مفهوم الاقتصاد الفضي Silver Economy كإطار اقتصادي واجتماعي يركز على تلبية احتياجات وتطلعات الأشخاص الذين تجاوزوا سن الستين. هذا المفهوم لا يقتصر على توفير الخدمات الصحية أو المنتجات المخصصة، بل يمتد إلى تمكين المسنين من العيش بكرامة والمساهمة في المجتمع. في السياق الإسلامي، تقدم تعاليم الدين إطارًا أخلاقيًا وقيميًا غنيًا يحث على رعاية كبار السن، احترامهم، والإحسان إليهم، مما يجعلها أساسًا مثاليًا لتطوير الاقتصاد الفضي في المجتمعات الإسلامية. علاوة على ذلك، يمكن لهذا التكامل أن يعزز قيم التعايش والمواطنة، ليخلق مجتمعًا يحترم التنوع ويقدر الإنسانية بغض النظر عن الخلفيات الدينية أو الثقافية. يهدف هذا المقال إلى استكشاف كيف يمكن لتعاليم الإسلام أن تدعم الاقتصاد الفضي مع تقديم رؤية شاملة ومبادرات مبتكرة تجمع بين القيم الإسلامية والتنمية الاقتصادية في إطار من التعايش والمواطنة.

اولا : الاقتصاد الفضي : مفهوم وأهمية عالمية

١– تعريف الاقتصاد الفضي : يشير الاقتصاد الفضي إلى الأنشطة الاقتصادية التي تستهدف كبار السن، وتشمل مجموعة واسعة من القطاعات مثل الرعاية الصحية، التكنولوجيا المساعدة، السياحة، التعليم، والخدمات الاجتماعية. يهدف هذا الاقتصاد إلى تحسين نوعية حياة المسنين، تمكينهم من العيش باستقلالية، وتسخير إمكاناتهم كمستهلكين ومساهمين في المجتمع. على سبيل المثال، تشمل المنتجات في هذا الاقتصاد الأجهزة الطبية مثل أجهزة قياس الضغط الذكية، بينما تشمل الخدمات مراكز الرعاية النهارية أو برامج السفر المصممة للمسنين.

٢– الأهمية العالمية : وفقًا لتقديرات الأمم المتحدة، من المتوقع أن يصل عدد الأشخاص فوق سن الستين إلى ٢.١ مليار بحلول عام ٢٠٥٠، مقارنة بـ ١.٤ مليار في عام ٢٠٢٠. هذا النمو يعني أن الاقتصاد الفضي سيصبح محركًا اقتصاديًا رئيسيًا، حيث يُقدر أن يساهم بتريليونات الدولارات في الاقتصاد العالمي

بحلول عام ٢٠٣٠ . في المجتمعات الإسلامية، حيث يشكل كبار السن جزءاً مهمًا من النسيج الاجتماعي، يمكن للاقتصاد الفضي أن يلعب دوراً حيويًا في تحقيق التنمية المستدامة، خاصة إذا استند إلى القيم الإسلامية التي تحث على التكافل والرحمة .

٣– التحديات والفرص: على الرغم من الفرص الكبيرة التي يقدمها الاقتصاد الفضي، إلا أنه يواجه تحديات مثل ارتفاع تكاليف الرعاية الصحية، نقص الوعي باحتياجات المسنين، ومحدودية الوصول إلى الخدمات في بعض المجتمعات . في المقابل، توفر هذه التحديات فرصًا للابتكار، مثل تطوير تكنولوجيا منخفضة التكلفة أو برامج مجتمعية تشجع على التكافل . في السياق الإسلامي، يمكن لهذه الفرص أن تُستغل لتعزيز التعايش والتسامح من خلال توفير خدمات شاملة للمسنين من مختلف الخلفيات .

ثانيا : تعاليم الإسلام حول رعاية كبار السن

يحتل كبار السن مكانة مرموقة في الإسلام، حيث يُنظر إليهم كمصدر للحكمة والخبرة . تقدم النصوص القرآنية والأحاديث النبوية إطاراً واضحًا للإحسان إليهم، مما يتماشى مع أهداف الاقتصاد الفضي .

١ . بر الوالدين: الركيزة الأساسية: يعتبر بر الوالدين من أعظم الأعمال في الإسلام، خاصة عندما يصلان إلى سن الكبر . يقول الله تعالى : **وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا** (سورة الإسراء: ٢٣) . هذه الآية لا تحث فقط على الرعاية المادية مثل توفير الطعام والسكن، بل تشمل الرعاية المعنوية من خلال الكلام الطيب والمعاملة الحسنة . هذا المبدأ يمكن أن يُترجم في الاقتصاد الفضي إلى إنشاء مراكز رعاية تقدم دعمًا شاملاً يحترم كرامة المسنين .

٢ . توقير كبار السن: يمتد احترام المسنين إلى ما هو أبعد من الأسرة، كما في الحديث النبوي: **(لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَرْحَمْ صَغِيرَنَا وَيُوَقِّرْ كَبِيرَنَا)** (رواه الترمذي وأحمد) . هذا الحديث يرسخ فكرة أن احترام المسنين جزء لا يتجزأ من أخلاق المسلم، مما يعزز مكانتهم كأعضاء فاعلين في المجتمع .

٣ . الإحسان إلى الجيران: يحث الإسلام على الإحسان إلى الجيران، خاصة إذا كانوا من كبار السن، كما في قول النبي صلى الله عليه وسلم: **(مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُحْسِنْ إِلَى جَارِهِ)** (رواه مسلم) . هذا الإحسان يمكن أن يشمل زيارة المسنين، مساعدتهم في الأعمال اليومية، أو تقديم الدعم العاطفي، مما يعزز التكافل الاجتماعي .

٤ . الرحمة بالضعفاء/ يُعد المسنون من الفئات التي تحتاج إلى الرحمة، كما في قول النبي صلى الله عليه وسلم: **(الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ، ارْحَمُوا مَنْ فِي الأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ)** (رواه الترمذي). هذا المبدأ يشجع على تقديم الدعم المادي والمعنوي للمسنين، خاصة أولئك الذين يعانون من الضعف الجسدي أو الاجتماعي.

٥ . تقدير خبرات المسنين: يُنظر إلى كبار السن كمصدر للحكمة، كما في قول النبي صلى الله عليه وسلم: **(إِذَا أَتَاكُمْ كَرِيمُ قَوْمٍ فَأَكْرِمُوهُ)** (رواه ابن ماجه). هذا التقدير يعزز دورهم كمرشدين ومستشارين، مما يتماشى مع أهداف الاقتصاد الفضي في تسخير إمكاناتهم.

ثالثا: الاقتصاد الفضي في مصر: التحديات والفرص

في مصر، حيث يبلغ عدد السكان أكثر من ١٠٠ مليون نسمة، يمثل كبار السن حوالي ٧٪ من الإجمالي (حوالي ٧ ملايين نسمة وفقًا لإحصاءات ٢٠٢٣)، وهي نسبة مرشحة للزيادة مع تحسن الرعاية الصحية. ويعيش كبار السن في ظل تحديات اقتصادية واجتماعية معقدة. ويمثل الاقتصاد الفضي فرصة ذهبية لتحقيق التنمية المستدامة. لنلقِ نظرة على الوضع الحالي:

١– التحديات:

أ. نقص الوعي والاستثمار في الاقتصاد الفضي

- الوعي المحدود: لا يزال مفهوم الاقتصاد الفضي غير متجذر في مصر، حيث تُنظر إلى كبار السن تقليديًا كفئة تعتمد على الدعم الأسري أو الحكومي بدلاً من كونهم محركًا اقتصاديًا. هذا يحد من الاستثمار في المنتجات والخدمات الموجهة لهذه الفئة.
- ضعف الاستثمار: لا توجد استثمارات كافية في القطاعات التي تخدم كبار السن، مثل الرعاية الصحية المتخصصة أو التكنولوجيا المساعدة (مثل التطبيقات الرقمية للصحة أو التنقل). هذا يعود إلى تركيز الاستثمارات على فئات عمرية أصغر أو قطاعات تقليدية مثل العقارات والصناعة.

ب. التحديات الاقتصادية العامة

- التضخم وارتفاع تكاليف المعيشة: يعاني الاقتصاد المصري من التضخم المرتفع، والذي بلغ ذروته عند حوالي ٤٠٪ في عام ٢٠٢٣، مما يؤثر على القدرة الشرائية لكبار السن، خاصة أولئك الذين يعتمدون على معاشات تقاعدية محدودة.
- انخفاض قيمة الجنيه: انخفاض قيمة الجنيه المصري بنسبة كبيرة (حوالي ٦٤٪ في ٢٠٢٤) يزيد من تكلفة السلع والخدمات المستوردة، مثل الأدوية والمعدات الطبية التي يحتاجها كبار السن.
- الديون والعجز المالي: ارتفاع الدين العام (١٥٥.٧ مليار دولار خارجي و ٥.٤ تريليون جنيه محلي في ٢٠٢٢) يحد من قدرة الحكومة على تمويل برامج الرعاية الاجتماعية أو الصحية لكبار السن.

ج. ضعف البنية التحتية الصحية والاجتماعية

- نقص خدمات الرعاية الصحية المتخصصة: يعاني النظام الصحي في مصر من نقص في المرافق المتخصصة بطب الشيخوخة أو الرعاية طويلة الأمد لكبار السن، مما يجعل تلبية احتياجاتهم الصحية تحديًا كبيرًا.
- محدودية دور الرعاية: دور رعاية المسنين في مصر قليلة العدد وغالبًا لا تلبي المعايير المطلوبة، كما أنها تواجه وصمة اجتماعية تجعل العائلات تميل إلى الاعتماد على الرعاية المنزلية بدلاً من المؤسساتية.
- ضعف التعليم الرقمي: كبار السن في مصر غالبًا يفتقرون إلى المهارات الرقمية اللازمة للاستفادة من الخدمات الرقمية، مثل التطبيقات الصحية أو الخدمات المصرفية، مما يحد من إمكانية دمجهم في الاقتصاد الرقمي الفضي.

د. تحديات اجتماعية وثقافية

- النظرة التقليدية لكبار السن: يُنظر إلى كبار السن في مصر غالبًا كعبء اقتصادي بدلاً من مورد اقتصادي، مما يقلل من فرص دمجهم في الأنشطة الاقتصادية أو ريادة الأعمال.
- اعتماد الأسرة: يعتمد معظم كبار السن في مصر على دعم الأسرة، مما يحد من استقلاليتهم المالي والاقتصادي، ويقلل من فرصهم في المساهمة في الاقتصاد الفضي كمستهلكين أو منتجين.
- نقص فرص العمل: لا توجد برامج كافية لتمديد العمر الوظيفي لكبار السن أو دمجهم في سوق العمل، على عكس دول مثل اليابان التي نجحت في خلق فرص عمل لهذه الفئة.

ه. النمو السكاني وارتفاع نسبة كبار السن

- زيادة نسبة كبار السن: مع زيادة متوسط العمر المتوقع في مصر، يتوقع أن ترتفع نسبة كبار السن (فوق ٦٠ عامًا) بشكل ملحوظ، مما يزيد الضغط على الموارد الاقتصادية والاجتماعية. على عكس أوروبا، حيث يشكل كبار السن قوة شرائية قوية، في مصر يعاني الكثير من هذه الفئة من الفقر أو محدودية الدخل.
- عدم الاستعداد الاقتصادي: مصر لم تستعد بعد بشكل كافٍ لمواجهة التحول الديموغرافي نحو مجتمع يزداد فيه عدد كبار السن، مما يتطلب استثمارات كبيرة في الرعاية الصحية، المعاشات، والخدمات الاجتماعية.

و. الفساد والبيروقراطية

- الفساد: يشكل الفساد عائقًا كبيرًا أمام تطوير قطاعات الاقتصاد الفضي، حيث تُحوَّل أموال كبيرة إلى مشروعات غير شفافة أو ذات عائد منخفض بدلاً من الاستثمار في خدمات كبار السن.
- البيروقراطية: تعيق الإجراءات البيروقراطية تطوير القطاع الخاص في تقديم خدمات لكبار السن، مثل إنشاء مراكز رعاية أو تطوير منتجات مخصصة.

٢– الفرص:

أ – برنامج تكافل وكرامة: هذا البرنامج، الذي أطلقته وزارة التضامن الاجتماعي في ٢٠١٥، يدعم حوالي ٥.٢ مليون أسرة، بما في ذلك كبار السن فوق ٦٥ عامًا. مع زيادة الدعم بنسبة ٢٥٪ في أبريل ٢٠٣٥، يمكن أن يكون نواة لتطوير الاقتصاد الفضي إذا تم توسيعه ليشمل خدمات غير نقدية، مثل التدريب أو الرعاية الصحية.

ب– التكنولوجيا المالية: يمكن تطوير تطبيقات رقمية تتيح لكبار السن الوصول إلى خدمات مالية وصحية بسهولة، مع مراعاة توافقها مع الشريعة.

ج – السياحة الفضية: مصر، بما تملكه من مواقع سياحية ومناخ معتدل، يمكن أن تطور برامج سياحة علاجية حلال موجهة لكبار السن.

د – تمكين كبار السن: برامج تدريبية لتعليم المهارات الرقمية أو الحرفية يمكن أن تحول كبار السن إلى قوة اقتصادية منتجة، مما يعزز كرامتهم ويقلل اعتمادهم على المساعدات.

رابعا: ربط تعاليم الإسلام بالاقتصاد الفضي وقيم التعايش

يمكن لتعاليم الإسلام أن تشكل أساسًا متينًا لتطوير الاقتصاد الفضي فى مصر، مع تعزيز قيم التعايش والمواطنة. من خلال:

١. الرعاية الصحية والاجتماعية: جسور الرحمة: تعاليم الإسلام حول الإحسان إلى المسنين تدعم تطوير مراكز رعاية صحية واجتماعية شاملة. على سبيل المثال، يمكن إنشاء مراكز طبية تقدم خدمات مجانية أو مدعومة للمسنين من مختلف الخلفيات الدينية والثقافية، مما يعكس قيم التسامح. كما يمكن أن تُستلهم مبادرات مثل رؤية مصر ٢٠٣٠ لتطوير مراكز رعاية متطورة تحترم كرامة المسنين وتعزز التعايش من خلال تقديم خدمات متساوية للجميع.

٢. التكافل الاجتماعي: بناء مجتمع متماسك: مبدأ التكافل في الإسلام يدعو إلى تحمل المجتمع مسؤولية أفراده، وهو ما يتماشى مع أهداف الاقتصاد الفضي. على سبيل المثال، يمكن إنشاء برامج تطوعية تجمع الشباب والمسنين من خلفيات متنوعة حيث يمكن أن يساعد الشباب المسنين في الأعمال المنزلية أو ينظمون أنشطة اجتماعية. هذه البرامج تعزز التفاهم المتبادل وتساهم في بناء مجتمع سلمي يحترم التنوع.

٣. استثمار خبرات المسنين: تمكين المواطنة: الإسلام يقدّر خبرات كبار السن، وهو ما يتماشى مع الاقتصاد الفضي الذي يراهم كمساهمين فعالين. ويمكن تنظيم منصات استشارية يشارك فيها المسنون من مختلف الأديان في تقديم استشارات للشباب أو المشاريع المجتمعية. على سبيل المثال، يمكن إنشاء برامج تجمع المسنين لتعليم الحرف التقليدية، مما يعزز المواطنة النشطة والتسامح.

٤. منتجات وخدمات مخصصة: شمولية وابتكار: الإسلام يحث على تلبية احتياجات الضعفاء، وهو ما يدعم تطوير منتجات مثل الأجهزة الطبية الذكية أو تطبيقات تسهل التواصل. على سبيل المثال، يمكن لشركات التكنولوجيا في مصر تطوير تطبيقات تقدم خدمات صحية واجتماعية بلغات متعددة، مع ميزات مثل تذكيرات الأدوية أو التواصل مع متطوعين. هذه التطبيقات يمكن أن تخدم المسنين من جميع الخلفيات، مما يعزز الشمولية والتسامح.

٥. تعزيز الكرامة والمواطنة: مجتمع يحترم الجميع: الإسلام والاقتصاد الفضي يشتركان في الهدف الأسمى وهو الحفاظ على كرامة المسنين. يمكن تحقيق ذلك من خلال برامج تمكين اقتصادي، مثل توفير فرص عمل جزئية للمسنين أو إشراكهم في أنشطة مجتمعية. على سبيل المثال، يمكن إنشاء أسواق للمسنين تمكنهم من بيع منتجاتهم الحرفية، مما يعزز شعورهم بالانتماء والمواطنة.

٦ . السلام والتعايش : رؤية إسلامية عالمية : الإسلام يدعو إلى السلام والتعايش، كما في قوله تعالى : يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ (سورة الحجرات : ١٣) . يمكن تطبيق هذه القيم في الاقتصاد الفضي من خلال تنظيم فعاليات ثقافية تجمع المسنين من خلفيات متنوعة، مثل مهرجانات تراثية تعرض الفنون والثقافات المختلفة، مما يعزز التفاهم والسلام .

الخلاصة

يوفر الإسلام إطاراً أخلاقيًا وقيميًا مثاليًا لتطوير الاقتصاد الفضي في المجتمعات الإسلامية عموما ومصر بصفة خاصة، حيث تتقاطع تعاليمه حول رعاية كبار السن مع أهداف هذا الاقتصاد في تحسين نوعية حياتهم وتمكينهم . من خلال دمج هذه القيم مع مبادرات مبتكرة تمكن من بناء مجتمعات شاملة تحترم التنوع وتعزز قيم التعايش والمواطنة . هذا التكامل ليس فقط استجابة لتعاليم الإسلام، بل خطوة نحو تحقيق تنمية مستدامة ومجتمع عادل يعكس روح الرحمة والتكافل . ومن خلال الاستثمار في الاقتصاد الفضي يمكن أن نقدم نموذجًا عالميًا يجمع بين القيم الإنسانية والنمو الاقتصادي في إطار من السلام والوئام .